الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من ٤ ق . م إلى ٣٢٥ م

ثبت مسلسل

كل التواريخ ما عدا أولها بعد الميلاد ، وكل ما كان منها قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه

---

٤ ق . م : مولد المسيح .
٦٠ م : صلبه ، هداية بولس .
٤٥ — ٤٧ : بعثة بولس الأولى .
٥٠ — ٥٣ : بعثة بولس الثانية .
٥١ : بولس فى أثينة .
٥٣ — ٥٧ : بعثة بولس الثالثة .
٥٨ — ٦٠ : فلكس يسجن بولس .
٦٤ : اضطهاد نيرون للمسيحيين .
موت بطرس وبولس .
٦٥ : ليتس أسقف رومة .
٧٧ : كليتس أسقف رومة .
٦٠ — ١٠٠ : الأناجيل الأربعة .
٨٩ : كلمنت الأول أسقف رومة .
٩٠ : رسائل يوحنا .
٩٨ : إواستس أسقف رومة .
١٠٦ : ألكسندر الأول أسقف رومة .
١١٦ : أكسيتس الأول أسقف رومة .
١٢٦ : تلسفورس أسقف رومة .
١٣٧ : هيچينس أسقف رومة .
١٤١ : بيوس الأول أسقف رومة .
١٥٠ : معذرة چستين الأولى .
١٥٦ : أنتسيتس أسقف رومة .
١٦٦ : استشهاد ديوليكارب .
١٧٥ : إليوثيريوس أسقف رومة .
١٧٧ : استشهاد ليون .
١٧٨ : أريناس أسقف ليون .
١٩٠ : ڤكتور الأول أسقف رومة .

ق . م

١٩٣ : پرتناكس وديديوس چليانس ، إمبراطوران .
١٩٣ — ٢١١ : سپتميوس سڤيرس ، إمبراطور .
١٩٤ : منتانس ؛ كلمنت الإسكندرى .
٢٠٠ : ليبر أپولوچتكس لترتليان .
٢٠٢ : زفرينس أسقف رومة .
٢٠٣ : توس سپتميوس سڤيرس ؛ أورجن .
٢٠٥ — ٢٧٠ : بلوتينس .
٢١١ — ٢١٧ : كركلا .
٢١٢ : كركلا يوسع نطاق المواطنية .
٢١٥ : حمامات كركلا ، مانى .
٢١٨ : كلستس الأول ، أسقف رومة .
٢١٨ — ٢٢٢ : إلاجابالس ، إمبراطور .
٢٢٢ : إريان الأول : أسقف رومة .
٢٢٢ — ٢٣٥ : الكسندر سڤيرس ، إمبراطور .
٢٢٨ : اغتيال ألپيان .
٢٣٥ — ٢٥٨ : مكسمينس ، إمبراطور .
٢٣٦ : فابيان ، أسقف رومة .
٢٣٨ — ٢٤٤ : جورديانس الأول ، والثانى والثالث ، أباطرة .
٢٤٠ — ٢٧٢ : شابور الأول ، ملك الفرس .
٢٤٤ — ٢٤٩ : فليب العربى ، إمبراطور .
٢٤٨ : سبريان ، أسقف قرطاجنة ، ضد سلسم لأورجن .
٢٤٩ — ٢٥١ : ديسيوس ، إمبراطور ؛ ديوفانتس العالم الرياضى .
٢٥١ : كورنليوس ، أسقف رومة .
٢٥١ — ٢٥٣ : جالس ، إمبراطور .
٢٥٣ — ٢٦٠ : ڤلريانس ، إمبراطور .
٢٥٣ — ٢٦٨ : جلييئس ، إمبراطور .
٢٥٤ : المركمانيون يغيرون على شمالى إيطاليا .
٢٥٥ : شابور يغزو سوريا .
٢٥٧ : مرسوم ڤلريان ضد المسيحية .
٢٥٩ : القوط يجتاحون آسية الصغرى .
٢٦٠ : مرسوم التسامح الأول
٢٦٠ — ٢٦٦ : أدنائس فى تدمر .
٢٦٦ — ٢٧٣ : زنوبيا ولنچينس فى تدمر .
٢٦٨ — ٢٧٠ : كلوديوس الثانى ، إمبراطور .

ق . م

٢٧٠ — ٢٧٥ : أورليان ، إمبراطور .
٢٧١ : البرابرة يغيرون على إيطاليا .
٢٧٥ — ٢٧٦ : تاكشس ، إمبراطور .
٢٧٦ — ٢٨٢ : پروبس ، إمبراطور .
٢٨٢ — ٢٨٣ : كارس ، كرمنيس ، نمريانس ، أباطرة .
٢٨٤ — ٣٠٥ : دقلديانوس ، إمبراطور .
٢٨٦ — ٣٠٥ : مكسميانس مع أغسطس .
٢٩٢ : جلريوس ، وقنسطنطيوس ، قيصران .
٢٩٥ : حمامات ، دقلديانوس .
٢٩٦ : مرسينس ، أسقف رومة .
٣٠١ : ثمن مرسوم دقلديانوس .
٣٠٣ — ٣١١ : اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .
٣٠٦ : قسطنطين يصبح قيصراً .
٣٠٧ : مكنثيوس ومسكيان كلاهما أغسطس ؛ باسلقا مكستيوس .
٣٠٧ — ٣٠٩ : مارسلس الأول ، أسقف رومة .
٣٠٧ — ٣١٠ : يوسبيوس ، أسقف رومة .
٣١٢ : واقعة جسر ملڤ ، مرسوم ميلان .
٣١٥ : تاريخ الكنيسة ليوسبيوس .
٣١٣ — ٣٢٣ : قسطنطين وليسينوس يقتسمان الإمبراطورية .
٣١٤ : مجلس أرليس .
٣١٤ — ٣٣٦ : سلفستر الأول ، أسقف رومة .
٣١٥ : قوس قسطنطين .
٣٢٣ : هزيمة لوسنيوس عند أدرنه .
٣٢٤ — ٣٣٧ : قسطنطين إمبراطور وحده .
٣٢٥ : مجلس نيقية .
٣٢٦ : قسطنطين يقتل ابنه وابن أخيه وزوجته .
٣٣٠ : القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية .
٣٣٧ : موت قسطنطين .

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

٤ ق . م — ٣٠ م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية ، وخيالها ، وآمالها — أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدنيس ، وديونيشس ، ومثراس ؟ لقد كان بولنجبرك والملتفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم فلتير نفسه ، يقولون فى مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجهر فلنى Volney بهذا الشك نفسه فى كتابه **خرائب الامبراطورية** الذى نشره فى عام ١٧٩١ ؛ ولما التقى نابليون فى عام ١٨٠٨ بفيلاند Wieland العالم الألمانى لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها فى السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنسانى فى العصر الحديث وأبعدها أثراً ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس — التهجم الشديد على صحته وصدق روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحى ؛ وربما أدت هذه البحوث على مر الأيام إلى ثورة فى التفكير لا تقل شأناً عن الثورة

التى أحدثتها المسيحية نفسها . وقد دارت رحى أولى المعارك فى هذه الحرب التى دامت مائتى عام كاملة فى صمت وسكون ، وكان الذى أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته فى عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على ١٤٠٠ صفحة حرص على ألا ينشره فى أثناء حياته . وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط ، رغم معارضة أصدقائه فى هذا النشر ، وسماه **هتاصات ولفنبتل** Wolfenbuttel Fragments . ويقول ريمارس إن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية فى جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر فى إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر فى تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذى يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمت من خير أو شر . وفى عام ١٧٩٦ أشار هردر إلى ما بين مسيح متى ، ومرقس ؛ ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها ، وفى عام ١٨٢٨ لخص هنريخ پولس Heinrich Paulus حياة المسيح فى ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات : أى أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية . ثم جاء داڤد استروس David Strauss (١٨٣٥ — ١٨٣٦) فى كتابه عن **حياة المسيح** — وهو كتاب عظيم الأثر فى التاريخ — فرفض ما حاوله پولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، وقال إن ما فى الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها . وقد أثارت مجلدات استروس الضخمة عاصفة قوية فى التفكير الألمانى دامت جيلا من الزمان . وفى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب استروس

هاجم فردناند كرستيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل پولس وقال إنها كلها مدسوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، (كورنثة) ورومية (رومة) . وفى عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغى بها أن يثبت أن يسوع لايعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو تجسيداً لطقس من الطقوس نشأ فى القرن الثانى من مزيج من الأديان اليهودية ، واليونانية ، والرومانية . وفى عام ١٨٦٣ أخرج إيرنست رينان Ernest Renan **حياة يسوع** الذى روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل . وقد جمع رينان فى هذا الكتاب نتائج النقد الألمانى ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله . وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازى Loisy الذى حلل نصوص العهد الجديد تحليلا بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرمانه هو وغيره من « المحدثين » . وفى هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة پيرسن Pierson ونابر Naber ، ومتثاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية . وفى ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (١٩٠٦) ؛ وفى إنجلترا أدلى و . ب . أسمث W.B. Smith و ج . م . ربرتسن J. M. Robertson . بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح . وهكذا بدا أن الجدل الذى دام مائتى عام سينتهى إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً .

وبعد فما هى الأدلة التى تثبت وجود المسيح ؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هى التى وردت فى كتاب **قدم اليهود** ليوسفوس (٩٣ ؟ م) :

« وفى ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، وهو رجل من رجال الدين ، إذا

جاز أن نسميه رجلا ، لأنه كان يأتى بأعمال عجيبة ، ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط . وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان . لقد كان هو المسيح » ؟

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلفى للرومان أو اليهود — وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء فى ذلك الوقت — ، نقول إن هذا الثناء لما يبعث الريبة فى هذه الفقرة ، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ، ولا يكادون يشكون فى أنها مدسوسة على يوسفوس[٣] . وفى التلمود إشارات إلى يسوع الناصرى ، ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية[٤] . وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح فى أدب الوثنيين ما ورد فى خطاب كتبه پلنى الأصغر (حوالى ١١٠)[٥] ، يستشير فيه تراجان عما يعامل به المسيحيين[*] وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاستس[٦] اضطهاد نيرون للكرستيانى Christiani فى رومة ويقول إنهم فى ذلك الوقت كان لهم أتباع فى جميع أنحاء أوربا . وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاستس فى أسلوبه ، وقوته ، وتحيزه شبهاً لم يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده فى صدورها من هـذا الكاتب[٧] . ويذكر سوتونيوس (حوالى ١٢٥) خبر هذا الاضهاد نفسه[٨] ، كما يذكر نفى كلوديوس (حوالى ٥٢) « اليهود الذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح (impulsore Chresto) »[٩] . وتتفق هذه الفقرة أشد الاتفاق مع ما ورد فى أصحاح أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوما أوجب فيه على « اليهود أن يخرجوا من رومة »[١٠] . وهـذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحيين لا المسيح نفسه ؛ ولكننا إذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

(*) نقلنا هذه الفقرة بعد ؟ ونجد نص الخطاب فى الجزء الاول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعا فى جيل واحد ؛ ولا بد لنا من أنْ نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت روما قبل عام ٥٢ ببضع سنين ، وإلا لما كانت خليقة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطورى .ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثنى عاش فى منتصف ذلك القرن الأول فى هتامه من كتاب احتفظ لنا به يوليوس أفركانس(١١) إن الظلمة العجيبة التى يقال إنها حدثت وقت موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة ، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية . أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها .

وقصارى القول أن نكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت .

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس . وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل — تؤرخ بعام ٦٤ م ولكنها كتبت فى الحقيقة بعد ذلك التاريخ — لا يكاد يختلف الباحثون فى أنها فى جوهرها من كتابات بولس . ولم يشك أحد قط فى وجود بولس نفسه أو فى لقائه الكثير لبطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ؛ ويعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح فى أثناء حياته ويحسدهم على هذه المعرفة(١٢) . وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير(١٣) وإلى حادث الصلب(١٤) .

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه ، أما الاناجيل فليس أمرها بهذه السهولة . ذلك أن الأربعة الأناجيل التى وصلت إلينا هى البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً ، كانت فى وقت ما منتشرة بين المسيحيين فى القرنين الأول والثانى . واللفظ الدال على الإنجيل "gospel" (وهو فى اللغة الإنجليزية القديمة godspel أى أخبارٌ طيبة) ترجمة للفظ اليونانى euangelion والذى يبدأ به إنجيل مرقس

ومعناه « أخبار سارة » — هى أن المسيح قد جاء ، وأن ملكوت الله قريبة المنال ، وأناجيل متى ، ومرقس ، ولوقا ، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة : ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية « والنظر إليها كلها مجتمعة » ؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة فى النحو أو فى الصقل الأدبى . بيد أن ما فى أسلوبها السهل من قوة وإيصال المعانى عن أقرب طريق ، وما فى تشبيهاتها والصور التى ترسمها من وضوح ، وما فى الإحساسات التى تصورها من عمق ، وما فى القصص التى ترويها من روعة ، كل هذا يكسبها حتى فى صورتها الأصلية الفجة جمالا فذاً ، زاده قوة عند العالم الإنجليزى الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة ، والتى وضعت للملك جيمس .

وترجع أقدم النسخ التى لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء فى النقل ، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ أو أغراضها . والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئا عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ إلا فى كتابات پپياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ إذ يقول إن « يوحنا الأكبر » وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها — قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس(١٥) .

ويضيف پپياس إلى هذا قوله : « وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية » — ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح . والراجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

بنصها(*) وإن كان لا يذكر الأناجيل قط . ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس فى الزمن على سائر الأناجيل ، وفى تحديد تاريخه بين عامى ٦٥ و ٧٠ م . وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً فى عدة صور(١٦) فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هى الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه . ويبدو أن إنجيل مرقس كان منتشراً أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم . ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهريا عما كان لديهم من أقوال وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال(١٧) . ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتزر Schwetyer ذلك العالم النابه الحكيم بأن إنجيل مرقس فى جوهره « تاريخ صحيح »(١٨) .

وتقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرنيوس Irenaeus أنه كتب فى الأصل باللغة « العبرية » — أى الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية . وإذ كان يبدو لنا إنه فى هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال إنجيل مرقس ، وأنه ينقل فى أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها ، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى ، وليس من أقوال « العشار » نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٧٥ — ٩٠ م(٢٠) . وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

(*) كشف جرنفل Grenfell وهنت Hunt فى خرائب إحدى المدن القديمة فى مصر فى عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ من عشرين قطعة من « الكلمات » تتفق إلى حد ما مع فقرات مماثلة لها فى الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها .

العهد القديم قد تحققت على يدى المسيح . بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً فى النفس وإثارة للعاطفة . ولا يسعنا إلا أن نعده بين روائع الآداب العالمية ، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم .

والإنجيل حسب نص القديس لوقا ، وهو النص الذى يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول ، يعلن أنه يرغب فى تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ؛ وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود ، وأنه كان صديق بولس ، ومؤلف سفر أعمال الرسل(٢١) . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى(٢٢) . فإنك لتجد فى إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التى يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقص ، وتجد منها ثلثمائة وخمسين فى إنجيل لوقا تكاد أن تكون هى بنصها(٢٣) . وفى إنجيل متى كثير من الفقرات التى توجد فى لوقا ولا توجد فى إنجيل مرقس ، وهنا أيضاً تكاد تكون هى بنصها ، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى ، أو أن لوقا ومتى أخذاها عن أصل مشترك ، لم نعثر عليه بعد . ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لينان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب .

ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . وهو يناقض الأناجيل الأخرى فى كثير من التفاصيل وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح(٢٥) . وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية ، قد جعلا الكثيرين من الباحثين فى الدين المسيحى يشكون فى صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا(٢٦) . بيد أن التجارب توحى إلينا بألا نعجل فى تكذيب الروايات القديمة ؛ ذلك بأن أسلافنا لم

يكونوا كلهم بلهاء . وتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول . والراجح أن الروايات المأثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه « رسائل يوحنا » ، ذلك بأنها تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست ، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح » .

فإذا سلمنا بهذا كله بقى الشىء الكثير . إن ما فى الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة ، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجيباً ، وتعرض فى مجموعها صورة منسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حمورابى ، وداود ، وسقراط — لزالوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات(*) . وإن المبشرين بالإنجيل ، رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ، ليسجلون كثيراً من الحادثات التى يعمد المخترعون الملفقون إلى إخفائها — كتنافس الرسل على المنازل العليا فى ملكوت الله ، وفرارهم بعد القبض على

(*) يقول أحد كبار العلماء اليهود قالة لعلها أقوى مما ينبغى : « لو كانت لنا فى تاريخ الإسكندر أو قيصر مصادر كالتى نجدها فى الأناجيل لما خالجنا أقل الشك فى أمرهما » — ج . كلوزنر J. Klausner فى كتابه « من يسوع إلى بولس » ص ٢٦٠ .

يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات فى الجليل ، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون ، وتشككه الأول فى رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصيحة اليأس التى رفع بها عقيرته وهو على الصليب ؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط فى أن وراءها شخصية تاريخية حقة . ولو أن عدداً قليلا من الرجال السذج قد اخترعوا فى مدى جيل واحد هذه الشخصية الجذابة ، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمة ، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل . وإن الخطوط الرئيسية فى سيرة المسيح ، وأخلاقه ، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ؛ لتكون أروع ظاهرة فى تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة للألباب :

الفصل الثانى

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح فى « الأيام التى كان فيها هيرودس ملكا على بلاد اليهود »[٢٧] — أى قبل العام الثالث ق . م . على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر » حين عمده يوحنا فى السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس »[١٢٧] ، أى فى عام ٢٨ — ٢٩ م » وهذا يجعل ميلاد المسيح فى عام ٢ — ١ ق . م . ويضيف لوقا إلى هذا قوله : « وفى تلك الأيام صدر مرسوم من قيصر أغسطس يقضى بأن تفرض ضريبة على العالم كله . . . حين كان كويرنيوس Quirinius والياً على سوريا » . والمعروف أن كويرنيوس كان حاكماً لسوريا بين عامى ٦ — ١٢م ؛ ويذكر يوسفوس أنه أجرى إحصاء فى بلاد اليهود ، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان فى عام ٦—٧ م[٢٨] . ولسنا نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة . ويذكر ترتليان[٢٩] إحصاء لبلاد اليهود قام به ستر نينس حاكم سوريا فى عام ٨ — ٧ ق . م ، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذى يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام ٦ ق . م . ولسنا نعرف اليوم الذى ولد فيه بالتحديد ، وينقل لنا كلمنت الإسكندرى (حوالى عام ١٠٠ م) آراء مختلفة فى هذا الموضوع كانت منتشرة فى أيامه ، فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو ، وإنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد — وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثانى بعد الميـــلاد . وفى عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة رومة بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من

نوفمبر ، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتائى الذى تبدأ الأيام بعده تطول ؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس ، أى مولد الشمس التى لا تقهر . واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من ينـــاير ، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وبعبادة الشمس ، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد فى الشرق أيضاً(٣٠)(*) .

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان فى بيت لحم ، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل ، أما مرقس فلايذكر بيت لحم . ولا يذكر المسيح إلا باسم « يسوع الناصرى »(**) . وقد سمى بالاسم العادى المألوف « يسوع » Yeshu'a ومعناه معين يهوه ؛ وحرفه اليونان إلى Iesous ، والرومان إلى Iesus .

ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة ، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشتهم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين : « ترى أنى له هذه الحكمة ، والقدرة على القيام بهذه العجائب ؟ أليس هو ابن النجار ؟ أليست أمه تسمى مارية Mary ، أليس أخوته هم يعقوب ، ويوسف ، وشمعون ويهوذا ؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا ؟ »(٣١) . ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبى بليغ وينطق مريم — مارية — بتلك العبارات البليغة ، وهى من أروع القصائد التى يشتمل عليها العهد الجديد .

وتأتى شخصية مريم فى القصة بعد شخصية ولدها فى الروعة والتأثير : فهى تربيه وتتحمل فى تربيته مسرات الأمومة المؤلمة ، وتفخر بعلمه فى أيام شبابه ،

(*) الذى نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد فى اليوم السادس من يناير . (المترجم) .

(**) يظن الناقدون أن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقووا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود — كما تتطلب ذلك النبوءة اليهودية . وذلك لأن أسرة داود كانت تقيم فى بيت لحم . ولكنا لا نجد ما يؤيد هذا الظن .

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه ، وترغب فى أن تبعده عن جموع أتباعه المثيرين ، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافى (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)(*) ، وشاهدته وهو يصلب ، وعجزت عن إنقاذه ، ثم تلقت جسده بين ذراعيها ؛ فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامى ، لأن صلات الآباء والأبناء تؤلف مسرحيات أعمق مما تؤلفه عاطفة الحب الجنسى . أما القصص التى أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندى رومانى فالنقاد مجمعون على أنها « افتراء سخيف »(٣٢) . وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اصطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه ، وعن مذبحة الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً فى هذا الشعر الشعبى . ولا يذكر بولس ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء ، وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف ، بسلاسل أنساب متعارضة ؛ ويلوح أن الاعتقاد فى مولد المسيح من عذراء قد نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود .

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذى لا يغنى عن شباب المسيح . فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره . ولقد كان يوسف نجاراً ، وإن ما كان فى ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما ، وكان يعرف من ينتمى إلى حرفته من الصناع ، كما كان يعرف الملاك ، ورؤساء الخدم ، والمستأجرين ، والأرقاء وكل ما كان يحيط به فى الريف ؛ ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً فى أحاديثه . وكان يحس بما فى الريف من جمال طبيعى ، وما للزهر من لون جميل ، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون . وليست قصة أسئلته للتلاميذ فى الهيكل مما لا يقبله العقل . وكان

(*) نقلنا هذه الأقوال وما بعدها كما هى وإن خالفت بعض عقائد المسلمين والمسيحيين . (المترجم)

ذا عقل يقظ طلعة ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره فى بلاد لشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج . لكنه لم يتعلم تعليما منظما ، وشاهد ذلك أن جيرته كانوا يتساءلون : « كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ »[٣٣] . وكان يتردد على المجمع الدينى ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، ويبدو عليه السرور حين يسمعه . وقد انطبعت فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص . وكان لها أثر كبير فى تشكيله . ولعله قرأ أيضاً سفرى دانيال وأخنوخ ، لأنا نجد فى تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود ، ويوم الحشر ، ومملكة السماء .

وكان الهواء الذى يتنفسه مشحوناً بالحماسة الدينية ، وكان آلاف من اليهود ينتظرون على أحر من الجمر مجيء منقذ إسرائيل . وكان السحر والشياطين ، والملائكة ، وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين ، وإخراجها ، والمعجزات ، والنبوءات ، والاطلاع على الغيب ، والتنجيم ، كانت كل هذه عقائد مسلما بها فى كل مكان . ولعل قصة المجوسى كانت تسليما لا بد منه لعقائد المنجمين فى ذلك العصر[٣٤] ، وكان السحرة يطوفون بالمدن ؛ وما من شك فى أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين(*) ، وذلك فى خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس فى أثناء عيد الفصح . ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى « الناصرة Mazaranes » كان المنتمون إليها يعيشون فى بيريه فى الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا يرفضون التعبد فى الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس[٣٦] . ولكن الذى

(*) وكان أشوكا قد بعث بمشيريه البوذيين حتى بلغوا مصر وقورينى غرباً[٣٣] ، وأكبر الظن إذن أنه بعثهم إلى بلاد الشرق الأدنى .

أثار حماسته الدينية هو عظات يوحنا ابن اليصابات قريبة مريم .

ويروى يوسفوس قصة يوحنا بشيء من التفصيل(٣٧) . فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شيخاً طاعناً فى السن ، أما الحقيقة فهى عكس هذا ، فهو فى الوقت الذى نتحدث عنه فى سن عيسى أو قريب منه ، ويصفه مرقس ومتى بأنه كان يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل ، ويقف بجوار نهر الأردن ، ويدعو الناس إلى التوبة . وكان يماثل الإسينيين فى الزهد ، ولكنه يخالفهم فى اعتقاده أن التعميد يكفى أن يكون مرة واحدة ؛ وقد يكون اسمه « المعمدان » مرادفاً للفظ اليونانى « إسين » أى الاستحمام(٣٨) ، وقد أضاف يوحنا إلى عقيدة التطهير الرمزى تنديده الشديد بالنفاق ، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة ، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا إلى الدار الآخرة ، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء(٣٩) ، وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور .

ويقول لوقا إنه فى « السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس » أو بعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن ليُعَمَّد على يديه . وهذا القرار الذى اتخذه رجل « يقرب من سن الثلاثين »(٤٠) شاهد على أن المسيح قد آمن بتعاليم يوحنا ؛ وأن تعاليمه هو لن تفترق فى جوهرها عن تلك التعاليم . أما أساليبه ، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا : فهو لم يعمد أحداً(٤١) ، ولم يعش فى البيداء ، بل عاش العالم . ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويوحنا إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس أنتپاس « صاحب المدن الأربع » فى الجليل بسجن يوحنا . وتقول الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاد هيرودس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هيروديا س وهى لا تزال زوجة لفليپ أخيه غير الشقيق . أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودس أن

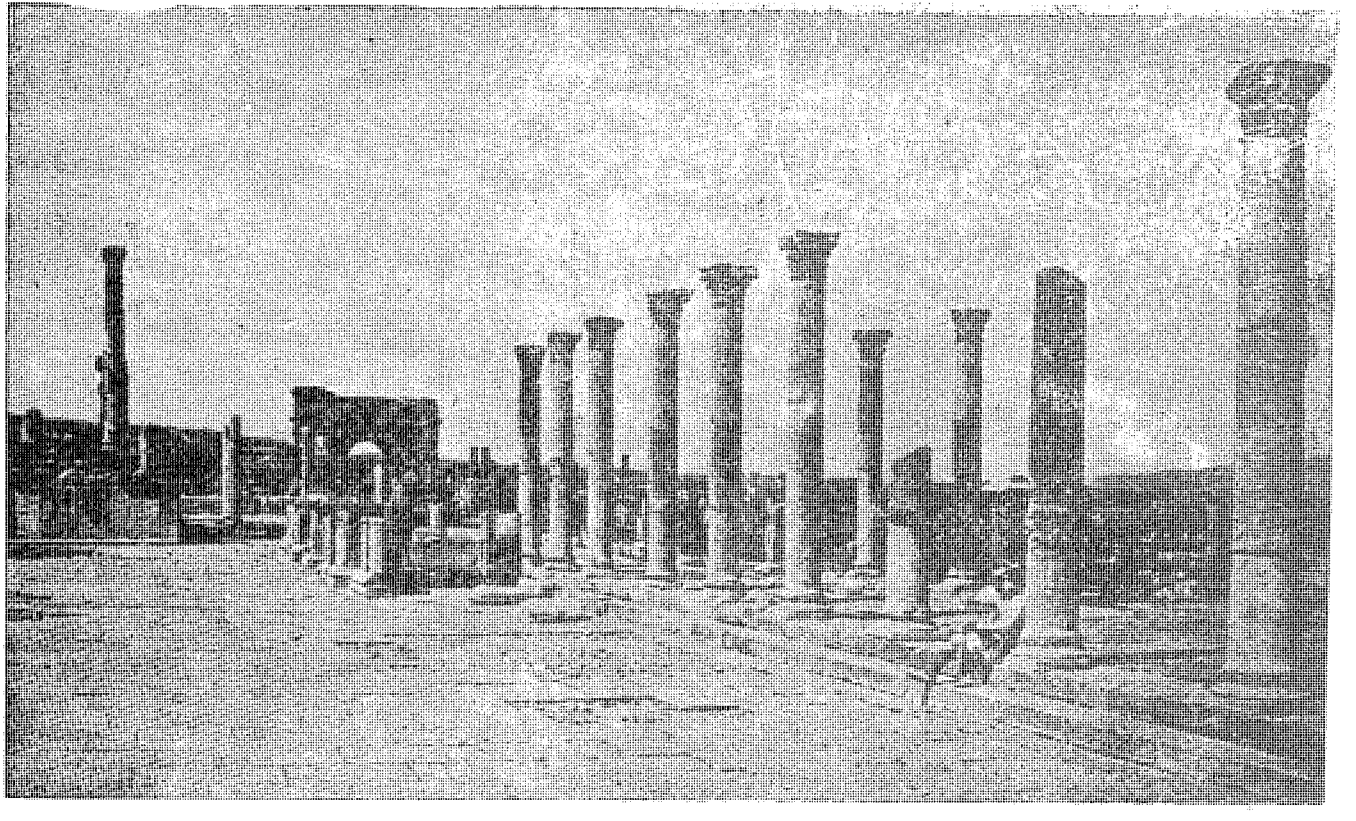

(شکل – ۱۱) خرائب تنجاد

يكون يوحنا يستتر بستار الإصلاح الدينى ليثير القلاقل السياسية فى البلاد[٤٢]. ويروى مرقس[٤٣] ومتى[٤٤] فى هـذا المجال قصة سالوم ابنة هورديا‌س ، التى فتنت هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة تطلبها . ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا ، بتحريض من أمها ، وإن الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها . وليس فى الأناجيل شىء عن حب سالوم ليوحنا ، وليس فى يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد فى موته .

الفصل الثالث

الرسالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب فى الناس مبشراً بملكوت الله(٤٥) ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » ، وإنه « كان يعلم فى مجامعهم »(٤٦) . وليست لدينا صورة مطبوعة فى أذهاننا عن ذلك الشاب المثالى ، وهو يقوم بدوره فى قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا : « روح الرب علىّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق » « وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية »(*) ، ويضيف لوقا « وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هـذا المكتوب فى مسامعكم » ؛ وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه »(٤٨) . ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وارتد أولا فى حذر وحيطة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجـدل السياسى ، ثم أصبح فى كل يوم أعظم جرأة فى إعلانه إنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى(٤٩) .

وإنا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة : وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه ، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاقى ومثلنا العليا وثيقا الصلة به ، تكونا

(*) هـذا الجزء من إنجيل لوقا ٤ : ١٨ وإن كان المؤلف يضيفه إلى الآيات السابقة المنقولة عن سفر إشعيا . (المترجم)

على منواله ، ولهذا فإنا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً فى أخلاقه . لقد بلغ شعوره الدينى من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه فى آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان : وإن الإنسان ليجد فى الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح فى مواضع أخرى منها ؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أقسى ما كان يؤمن به معاصروه عن جهنم السرمدية التى يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التى لا تنطفئ أبداً والديدان التى لا تشبع من نهش أجسامهم(٥٠) . وهو يقول دون أن يحتج عليه أحد إن رجلا فقيراً فى الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غنى فى الجحيم(٥١) . وينصحنا بنبل وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا ، ولكنه يلعن الناس والمدن التى لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التى لم تكن تحمل ثمراً(٥٢) . ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أمه(٥٣) . وكان يتصف بحماسة النبى العبرانى المتزمت أكثر من اتصافه بالهدوء الشامل الذى يمتاز به الحكيم اليونانى وكانت عقائده القوية تملأ قلبه ؛ كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم إنسانيته العميقة ؛ ولكن أغلاطه كانت هى الثمن الذى أداه لذلك الإيمان القوى الذى استطاع أن يحرك به العالم . أما فيما عدا هذا فقد كان أحب الناس إلى القلوب . وليست لدينا صورة واضحة له ولم يترك لنا أتباعه وصفاً له دقيقاً ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان وسيما بعض الوسامة ، كما كان ذا روح جذابة ، استطاع بفضلهما أن يجمع حوله كثيرات من النساء وكثيرين من الرجال : وفى وسعنا أن نستدل من بعض العبارات المتفرقة(٥٤) ، على أنه كان يلبس ، كما كان يلبس أهل زمانه ، عباءة فوق جلباب ، وخفين فى قدميه ، ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس(٥٥). وكانت كثيرات من النساء يجدن عنده شيئا من العطف والحنان يبعث فيهن إخلاصا عامراً تفيض به قلوبهن . وليس انفراد يوحنا بذكر المرأة التى ضبطت وهى تزنى

حجة على كذبها ، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية ، وهى فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح(*) . ولا يقل جمالا عن هذه القصة قصة أخرى ليس فى طاقة أتباعه أن يخترعوها ، وهى قصة العاهر التى أثرت فى قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين ، فخرت راكعة بين يديه ، ودهنت قدميه بالطيب الثمين ، وغسلتهما بدموعها ، وجففتهما بشعر رأسها ، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد غفرت لها « لأنها أحبت كثيراً »(٥٧) . ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه ، وأنه « احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم »(٥٨) .

ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء الإسينيون والمعمدان . ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر فى حفل للزواج ، وأنه كان يعيش مع « العشارين والمذنبين » ، وأنه قبل عاهراً تائبة ضمن أتباعه . ولم يكن يأنف من مسرات الحياة الساذجة ، وإن كان قد قسا قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهى فتاة . وكان فى بعض الأحيان يقبل الدعوة إلى الولائم فى بيوت الأغنياء ، بيد أنه كان فى العادة يختلط بالفقراء ، وإن كانوا من الأمحارين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين كان الفريسيون الصدوقيون يحتقرونهم ويتجنبونهم . وكان يدرك أن الأغنياء لن يؤمنوا برسالته ، فكان لذلك يبنى آماله على ما عساه يحدث من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الأعلين فى ملكوت الله . ولم يكن يشبه قيصر إلا فى وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفى اتصافه بالرحمة ، أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين فى أخلاقهما ، ونظرتهما إلى الحياة ، وما يهتمان به فيها . لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

(*) يوحنا ٧ : ٥٣ وما بعدها . وقد وردت القصة أيضاً فى نسخ خطية قديمة من إنجيل مرقس ولوقا ، ولكنها حذفت من نصيهما المتأخرين ، وليس سبب حذفها خوف الناشرين من أنها قد تساعد على فساد الأخلاق .

نظمهم وشرائعهم ؛ أما المسيح فكان يرغب فى أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع . وكان قيصر هو الآخر ممن يغضبون أحياناً ؛ ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة ؛ أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذى بصيرة ، وكان يجيب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين . ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة ، ولم يكن فى وسع أحد أن يربكه ولو هدده بالقتل . لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه ، بل كان مبعثها نفاذ البصيرة ، وقوة الشعور ، ووحدة الغرض . ولم يكن يدعى العلم بكل شىء ، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التى لا ينتظر وقوعها ، وكان الذى يحمله على المغالاة فى تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له ، كما حدث فى الناصرة وأورشليم . بيد أن قواه كانت غير عادية ، ولعل الذى يثبت هذا هو معجزاته .

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث فى أكثر الأحوال بقوة الإيحاء — أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، فى روح قابلة للتأثر . ولقد كان وجوده فى حد ذاته يبعث القوة فيمن حوله ، فكانت لمسته المبشرة بالخير تشفى المريض وتقوى الضعيف ، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس فى الخرافات والتاريخ[٥٩] دليلا على أن معجزات المسيح هى الأخرى خرافات وأساطير ، فليس منها إلا عدد قليل ، لا يصدقه العقل ، ويمكن مشاهدة أمثالها فى كل يوم تقريبا فى لورد Lourdes ، وما من شك فى أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح فى إپدروس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفسانى فى العالم القديم ، وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولها أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفيهم ، وثانيهما عجزه عن القيام

بمعجزات فى الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية ؛ ومن ثم كان قولهم إنه « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته »(٦٠) . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن « سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية ، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) » ؛ والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخفّ حدتها فى حضرة عيسى ؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها . وأما ابنة يايروس فقد قال المسيح عنها فى صراحة : إن البنت لم تمت بل كانت نائمة — ولعلها كانت مصابة بالشخوص(*) . ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الآمر القوية : « طليثا قومى » (أى يا صبية قومى)(٦١) . ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة ؛ فقد كان يحس أنه لا يأتى بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية . ولسنا نعرف أنه كان مخطئا فى اعتقاده هذا ، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما فى تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة . ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخَوَر نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره ، وينهى أتباعه عن إذاعتها ، ويؤنب من يطلب إليه « علامة » ، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التى دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال « عجيبة » .

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليبدلوا أقوال العالم . فالأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعى ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ؛ فهم لا يخفون مطامعهم ، ولما أراد

(*) ويسمى أيضاً بالتخشب والجمود أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يتميز بفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبى المركزى (شرف) .

عيسى أن يهدئ من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون فى يوم الحساب على اثنى عشر كرسيا يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر[٦٢] . ولما أن سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون الذى سماه المسيح باسم كفاس ، أى « الصخرة » . وترجم اليونان اسمه إلى بطرس . وبطرس هذا شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور ، جاد ، كريم ، غيور ، هياب يصل به الوجل فى بعض الأحيان إلى حد الجبن الذى لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه . وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك فى بحيرة الجليل ، وكذلك كان ولدا زبدى Zebedee يعقوب ويوحنا . وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا دائرة ضيقة حول المسيح . وكان متّى جابيا فى مدينة كپرنوم القائمة على الحدود ؛ أى أنه كان يقوم بعمل للدولة ، وإذن فقد كان فى منصبه هذا يخدم رومة ؛ لهذا كان مكروها من كل يهودى يتوق إلى الحرية . وكان يهوذا الكريوثى وحده دون سائر الرسل الذى لم يأت من الجليل . وجمع الاثنا عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائبا عنهم ؛ وكانوا فى طوافهم مع المسيح فى رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون ، ويأخذون طعامهم آنا بعد آن مما يمرون به من الحقول ، ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتدون بهديهم . وقد أضاف عيسى إلى الاثنى عشر اثنين وسبعين من الأتباع ، وبعث باثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها ، وقال لهم « لا تحملوا كيسا ، ولا مزوداً ، ولا أحذية »[٦٣] . وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والأتباع وقدمن لهم المعونة ، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التى لا غنى عنها ، والتى هى أعظم سلوى لحياة الرجال . وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم .

الفصل الرابع

الإنجيـــل

وكان يعلم الناس بالبساطة التى تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التى تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وبالحِكَم والأمثال القوية بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات ، والمجازات التى لا تقل روعة عن أمثالها فى أى أدب من آداب العالم . وكانت طريقة القصص الرمزى التى يلجأ إليها مألوفة فى بلاد الشرق ، وقد أخذ بعض تشبيهاته الرائعة ، ولعله أخذها دون علم منه ، عن أنبياء بنى إسرائيل ، وكتاب المزامير ، وأحبار اليهود(٦٤) . بيد أن وضوح خطبه واتجاهها إلى هدفها مباشرة ، وروعة خياله وقوّته ، وإخلاصه العظيم ، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشعر الملهم . ولسنا ننكر أن الغموض يكتنف بعض أقواله ، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يتجافى مع العدالة(٦٥) ، وأن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير ، ولكنها كلها تقريبا نماذج فى الإيجاز والوضوح والقوة .

وكانت بداية تعاليمه هى إنجيل يوحنا المعمدان ، وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى دانيال وأخنوخ ، إذ ليس فى التاريخ طفرات . ومن أقواله أن ملكوت الله قد حان أجلها ، وأن الله سيقضى عما قريب على عهد الشر والخبائث ، وأن ابن الإنسان سيأتى « على سُحُب السماء » ليحاسب جميع البشر الأحياء منهم والأموات(٦٦) . ومن أقواله إن الوقت الذى يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعا ، فأما من تاب وأناب ، وسلك سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برسوله ، فإنه يرث ملكوت السموات ، ويسمو إلى القوة والمجد فى عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور والآلام والموت .

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه ، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحا ، ومن ثم نشأت فى وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما فى هذه الأفكار من غموض . ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ أهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك ، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، وكانت هذه هى الرواية اليهودية التى ورثها عنهم المسيح ، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين « ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض » .

ولم يُنطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « مملكتى ليست من هذا العالم »(٦٧) إلا بعد أن خبا هذا الأمل . فهل كان يعنى بها حالة روحية أو طوبى مادية ؟ لقد كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبرؤون من الذنوب — « ملكوت الله داخلكم »(٦٩) ؛ وكان فى أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد فى مستقبل الأيام ، حكامه هم الرسل ، ويأخذ من أعطى أو أوذى فى سبيل المسيح مائة ضعف(٧٠) . ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هى الكمال الخلقى إلا مجازاً ، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقى إنما هو إعداد لهذا الملكوت وثمن يؤدى للحصول عليه ، وأنه هو الحال التى تكون عليها جميع الأرواح الناجية فى الملكوت إذا ما تحقق(٧١) .

ومتى يحين موعد هذا الملكوت ؟ قريبا . « الحق أقول لكم إنى لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » . ومن أقواله لأتباعه : « لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان »(٧٣) . ثم أخبره قليلا فيما بعد : « إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته »(٧٤) ؛ « لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا

كله »[٧٥] . ومرّت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن إلا الأب »[٧٦] . وستسبقه علامات : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن . . . يعثر كثيرون و . . . يبغض بعضهم بعضا . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين »[٧٧] . وفى بعض الساعات جعـــل يسوع مجىء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلها عادلا كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة ؛ وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملا من أعمال الله ، وعطية ومعجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية .

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيوعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعيا[٧٨] . وإنا لنرى فى الأناجيل بعض الشواهد التى تؤيد هذا الرأى ، منها أن المسيح لا يخفى احتقاره للرجل الذى يجعل همه فى الحياة جمع المال والانغماس فى الترف[٧٩] ، فهو يتوعـــد الفتى البطين بالجوع والشقاء ، ويواسى بالتطويبات التى ضمن لهم بها ملكوت الله . ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال : « بع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، و... اتبعنى »[٨٠]. ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثورى للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يؤلفون جماعة شيوعية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شىء مشتركا »[٨١] . وكانت التهمة التى أدين من أجلها عيسى هى أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود » .

ولكن فى وسع الرجل المحافظ أن يجد فى العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه . منها أن المسيح قد اتخذ متّى صديقا له ، ومتّى هو الذى ظل كما كان

عاملا من قبل الرومان ؛ ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولم يكن له فيما نعلم نصيب فى الحركة اليهودية التى تهدف إلى الحركة القومية ، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية . وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله »(٨٢) . ولسنا نجد فى قصة الرجل الذى « دعا عبيده » قبل سفره « وسلمهم أمواله »(٨٣) أية شكوى من الربا أو الاسترقاق ، بل إنها تسلم بهاتين السنتين بوصفهما من الأمور التى لا تقبل الجدل . ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذى استثمر العشر الميقات (٦٠٠ ريال أمريكى) التى عهد بها إليه سيده ، فصارت عشرين ؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذى تركت له منها واحـــدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته ، ويُنطق هذا السيد بتلك العبارة القاسية : « إن كل من له يُعطى ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه »(٨٤)، وهى خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم . وفى قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذى يؤجر من عمل ساعة بقدر ما يؤجر الذين ظلوا يكدحون طول اليوم ؛ فينطق المسيح صاحب العمل بقوله : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟ »(٨٥) . ويبدو أن المسيح لم يفكر فى القضاء على الفقر ، لأن الفقراء دائما معه . فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه : « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاءه سيده يجده يفعل هكذا »(٨٦) أى ما كلفه به . وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوى النفوس الثائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات(٨٧). أما الثورة التى كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثراً ؛ فهى ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال . فإذا استطاع أن يطهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية ، ومن القسوة ، والفجور ، فإن الطوبى

تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التى تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين . وهذا إذا تم كان أعمق الثورات ، التى إذا قيست إليها الثورات جميعها كانت تغيراً موقوتاً يضـــع طبقة مكان طبقة ، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة . وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين ، أى محدثى الانقلابات فى تاريخ العالم .

وليست أهم أعماله أنه يبشر بدوله جديدة ، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية . وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هى التى تنبأ بقيامها عند ما يحل موعد ملكوت الله[٨٨] ، والتى كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول فى هذا الملكوت . ومن ثم كانت تلك « التطويبات » وما فيها من تمجيد للوداعة ، والفقر والرقة ، والسلام لم يسبق له مثيل ، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثانى ، وأن يكون الناس كصغار الأطفال (لامثلا عليا للفضيلة !) ، وكان عدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشئون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية ، بل كانت نظاما يكاد يماثل نظام الأديرة يهيئ الرجال والنساء لأن يختارهم الله لمملكة مرتقبة ، لن تكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولافقر ، ولا حرب . وقد أثنى يسوع على الذين تركوا « بيتاً ، أو والدين ، أو إخوة ، أو امرأة ، وأولاداً » بل أثنى أيضاً على الذين « خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات »[٨٩] . وما من شك فى أن هذه التعاليم قد وضعت للتسير عليها أقلية دينية ورعة ، ولم توضع لمجتمع دائم . لقد كانت هـــذه مبادئ أخلاقية ، ضيقة فى أغراضها ، ولكنها عامة فى مجالها ، لأنها تطبق فكرة الأخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعـــداء كما تطبقها على الجيران والأصدقاء . وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد فيه الناس الله فى الهياكل ، بل يعبدونه « بالروح ، والصدق » وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة .

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة ؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وإن الفكرة الرئيسية التى تدور حولها عظات المسيح — فكرة يوم الحساب وملكوت الله — لهى من الأفكار التى وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام . ولقد نادت الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمن طويل . فقد جاء فى سفر اللاويين : « تحب قريبك كنفسك » و « كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك[٩٠] » . وكان اليهود قد أُمِرُوا فى سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم[٩١] ، وكان إرميا[٩٢] وإشعيا[٩٣] ، قد أشارا عليهم أن يديروا خدهم لمن يلطمهم . وكان الأنبياء أيضا قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أيا كان نوعها ، وكان إشعيا[٩٤] وهوشع[٩٥] ، قد شرعا يبدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب ، وكان هلل قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس ؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التى كانت سائدة بين شعبه ، وأفاد من تلك المبادئ .

وقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجرى على سنتهم ؛ فلا يخطب إلا فى اليهود . ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود : « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامرين لا تدخلوا »[٩٦] ؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته فى أن يحملوا « الأنباء الطيبة » إلى عالم « الكفرة »[٩٧] ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها إن « الخلاص هو من اليهود »[٩٨] ، وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقولها عليه إنسان لم يكن حاضرا معه ، أو كتبها بعد ستين عاما من الحادثة التى قيلت فيها . ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفى ابنتها أبى فى أول الأمر وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٩٩] . وقال للأبرص الذى شفاه من عاته « اذهب وأر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى »[١٠٠] : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ،

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا »[١٠١] ، ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية ، سار على سنة هلل فلم يفكر فى أنه ينقض هذه الشريعة : لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل »[١٠٢] « ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس »[١٠٣](*) .

لكنه مع هذا قد بدل كل شىء بقوة أخلاقه وشعوره . فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول فى الملكوت بأن يحيوا حياة العدالة ، والرأفة والبساطة . وزاد الشريعة صرامة فى مسائل الجنس والطلاق[١٠٥] ، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعدادا للعفو[١٠٦] ، وذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان[١٠٧] ، وخفف الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذف بعض أوقات الصوم ، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة ، ونبذ بالجهر بالصلوات ، والتظاهر بالصدقات ، والاحتفالات الفخمة بالجنازات ، وترك الناس أحيانا يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت[١٠٨] .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات عدا الإسينيين ، وكان الذى أغضبهم بنوع خاص ما ادعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله . وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة . وكان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ، ويرون فى هذا النشاط ما كان يراه هيرودس فى نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفى تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومانى بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعى .

(*) ربما كانت هذه الفقرات مما تقوله عليه المسيحيون المتهودون الذين أرادوا أن يحطوا من شأن بطرس[١٠٤] ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا إذ ينقصنا الدليل .

وقد أوجسوا فى نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل ، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى لا يقصد به حرفيته . أما المسيح نفسه فقد نددبهم تنديداً شديداً .

« الكتبة والفريسيون . . . يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع . . . لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون . . . أيها القادة العميان . . . أيها الجهال والعميان ! . . تركتم أثقل الناموس — الحق والرحمة والإيمان . . . تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة . . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ! . . . تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقا . . . إنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ! أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ . . . إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله »[١٠٩] .

ترى هل كان يوحنا عادلا فى حكمه على الفريسيين ؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقريع ، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس مظاهر التقى الخارجية . غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هى[١١٠] . ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالا مخلصين ، وأشرافاً ظرفاء إلى حد كبير ، يشعرون بأن القواعد الشكلية التى أغفلها يسوع يجب ألا يحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد ، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التى ساعدت على جميع كلمة اليهود ، وبعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم يبغضهم ويعاديهم . وكان بعض

الفريسيين يعطفون على عيسى ، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التى كانت تدبر لاغتياله[١١١] ، ولقد كان نقوميدس Nicomedus أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر ، ويعلن هذا فى صراحة ووضوح . لقد كان أتباعه ينظرون إليه فى أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان ، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذى سيرفع نير الرومان عن إسرائيل ، ويبسط حكم الله على الأرض . ولما أن سألوه « قائلين يارب هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ »[١١٢] لم يجبهم إلا بقوله « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الرب فى سلطانه » وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب فى غموضه حين سأله رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر ؟ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسى فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داود[١١٣] . لكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية ، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أقنعاه تدريجا بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله فى الأرض لا ليعيد سيادة اليهودية ؛ ولم يقل (فى الأناجيل الثلاثة المتشابهة — متى ، ومرقس ، ولوقا) إنه هو والأب إله واحد أو يسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : « لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله »[١١٤] وقال وهو يصلى فى جتسمانى : « ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت »[١١٥] . وقد أخذ لفظ « ابن الإنسان » الذى جعله دانيال مرادفاً للفظ المسيح ، واستعمله فى بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه فى وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه فى مثل قوله : « فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً »[١١٧] — وهى عبارة رآها الفريسيون تجديفا فى حق الله . وكان يدعو الله باسم « الأب » دون أن يقصد بهذا فى بعض الأحيان أباه هو نفسه ، بيد أنه أحيانا أخرى يقول : « أبى » . ويبدو أنه يقصد بهذا

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة[١١٨] . وقد ظل وقتاً طويلا ينهى أتباعه عن أن يسموه المسيح ، ولكنه فى قيصرية فلبس رضى بقول بطرس إنه « المسيح ابن الله الحى »[١١٩] . ولما اقترب من أورشليم فى آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس ، حياه « جمهور التلاميذ » « قائلين مبارك الملك الآتى باسم الرب » ، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله : « إنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ »[١٢٠] . وقد جاء فى الإنجيل الرابع أن الجماهير حيته بقولها إنه « ملك إسرائيل »[١٢١] . ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسى سيقضى على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية . وكانت هذه الأصوات والتحيات هى التى قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثوار .

الفصل الخامس

الموت والتجلى

اقترب عيد الفصح واجتمع فى أورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرابين للهيكل . وكان البهو الخارجى يضج بأصوات البائعين ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الضحايا ؛ والصيارفة يعرضون النقود المتداولة فى هذا المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة فى الإمبراطورية الرومانية . ولما زار عيسى الهيكل فى اليوم الثانى بعد دخوله المدينة هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد ، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وتجار الحمام ، وبعثرة نقودهم على الأرض ، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصى . وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم فى الهيكل دون أن يتعرض له أحد(١٢٢) . ولكنه كان يخرج منه ليلا ويبيت فى جبل الزيتون لخوفه أن يُقبض عليه أو يُغتال .

وكان عمال الحكومة — المدنيون منهم والدينيون ، الرومان واليهود — يراقبونه ، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان فى دعوته . وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره ، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسى الذى استقبل به فى أورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التى اجتمعت فى عيد فصح ، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد ، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حُكم ذاتى وحرية دينية . ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع ،

وقال له : « إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »[١٢٣] ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح .

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع ، ولعل الذى أوصله إليه بعض أعضاء فى السنهدرين نفسه . ففى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين فى أرجح الأقوال(*) أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح فى دار صديق له فى أورشليم ، وكانوا ينتظرون أن ينجى المعلم نفسه بما له من معجزات ؛ لكنه لم يفعل شيئا من هذا ، ورضى بما قُدِّر له ؛ ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته عل أنه تضحية يكفِّر بها عن ذنوب شعبه[١٢٤] . وقد قيل له إن أحد الاثنى عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه ؛ وفى هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخربوطى(**) . وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فبارك الخمر الذى قدمه للرسل ليشربوه ، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية[١٢٧] . ويقول يوحنا إنه قال لهم « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلا بعد ... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا ... لاتضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى . فى بيت أبى منازل كثيرة ... أنا أمضى لأعدّ لكم مكاناً »[١٢٨] .

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم فى هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء فى مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود) ، إحياء لذكراه ؛ وليس ببعيد أنه ، وهو ذو الإحساس الشرقى المرهف والخيال الشرقى

(*) ولقد طال الجدل حول الزمن الذى امتدت إليه رسالة المسيح ، والسنة التى مات فيها . ولقد رأينا أن لوقا يحدد تعميد المسيح بعام ٢٨ — ٢٩ . أما تاريخ بولس ، الذى يعتمد فيه على ما قاله هو نفسه فى رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الأول والثانى ، وتواريخ الحكام الرومان الذين تولوا محاكمته ، والرواية المأثورة التى تقول إن صلبوته كان عام ٦٤ ، كل هذا يتطلب أن يكون اعتناق بولس لدين المسيح فى عام ٣١ . انظر الفصل السابع والعشرين .

(**) لقد قيلت حجج كثيرة فى تفنيد قصة يهوذا[١٢٥] ، ولكنها حجج لا يقتنع بها العقل[١٢٦] .